نشأة دولة المماليك: قراءة جديدة

د. تركي بن فهد آل سعود

ملخص البحث:

يركز هذا البحث على نشأة الدولة المملوكية في مصر. وبعكس النظرة السائدة التي تجعل المماليك حزبًا واحدًا متبنيًا للمشروع نفسه، فإنه يرى أن المماليك كانوا فرقًا يتبنى كل منهم مشروعًا مختلفًا لشكل الدولة الجديدة وأسلوب حكمها. ويرتكز أيضًا على أدلة من المصادر في تتبع الصراع ومراحله بين تلك الفرق.

Abstract:

This paper deals with the establishment of the Mamluk State in Egypt. Contrary to the popular position which sees the Mamluks as a unified political party that had a common vision regarding the establishment of the new state, this paper relying on primary sources suggests they were divided into various groups which maintained individual interpretations of what the new state should be.

المقدمـــة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فلطالما استوقفني موقف القوى المتعددة، الداخلية والخارجية، من قيام دولة المماليك البحرية في مصر؛ فالأمر متضارب في المصادر، والمسكوت عنه أكثر من المصرَّح به. وهذا متوقَّع؛ لأن معظمها كُتب في عهد هذه الدولة. وهو ما يخرج منه القارئ بأسئلة كثيرة لا يجد عنها إجابة في تلك المصادر، ولا يجد للتناقضات تفسيرًا مقنعًا. ولا يدّعي هذا البحث أنه سيزيل تلك الحيرة، ويجيب بجواب يُقنع الجميع، لكنه مساهمة في فهم غوامض هذه الحوادث، ومحاولة لقراءة ما بين السطور، آملاً أن يُوصل ذلك إلى فهم أقرب لطبيعة قيام تلك الدولة وملابسات ذلك.

معلوم لدى المهتم بتاريخ المماليك ظروف نشأة تلك الفِرقة العسكرية، والغرض من ذلك، وأساليب تعليمهم وتنشئتهم مما يجعل تكرارها هنا لا مُبرّر له[1]. فالبحث يريد أن يتعدى ذلك إلى تفاصيل ظروف نشأة الدولة، مارًّا مرورًا سريعًا بالوضع السياسي في آخر عهد السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٣٩-١٢٤٩م)، ومقتل آخر سلاطين الأيوبيين الفعليين في مصر الملك المعظم توران شاه (٦٤٧-٦٤٨هـ/١٢٤٩-١٢٥٠م)؛ لأنه سيبني على ذلك نقاشه لقيام الدولة المملوكية. وهل كان قيامها مشروعًا واضحًا في ذهن المماليك، أم كانت هناك عِدَّة مشروعات تصارع أصحابها فيما بينهم لفرضها؟ وأي تلك المشروعات انتصر في النهاية؟

---

(١) لمعرفة المزيد عن بدايات المماليك البحرية ونشأتهم انظر: قاسم عبده قاسم، **عصر سلاطين المماليك: التاريخ السياسي والاجتماعي**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

الوضع في آخر عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب:

منذ أن وصل الملك الصالح إلى المنصورة[٢] في سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، وهو في ضعف متزايد بسبب المرض، وكانت مقاليد الأمور – في أغلب الأحيان– في يد زوجته شجر الدر[٣]، وأتابك[٤] جيشه فخر الدين[٥] ابن شيخ الشيوخ[٦]. وفي ظل هذا الوضع سجَّل المماليك البحرية انتصارًا كبيرًا وحاسمًا على

---

[٢] المَنصُورَة: بلدة أنشأها السلطان الأيوبي الملك الكامل بن العادل (٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٨م) بين دمياط والقاهرة؛ ليرابط بها الجيش الإسلامي في مواجهة الفرنج الذين احتلوا دمياط سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م. راجع: ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، د. ت، ج٥،ص٢١٢.

[٣] أم خليل شجر الدر، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، تولت أمور الحكم بعد مقتل السلطان توران شاه في محرم ٦٤٨هـ/مايو ١٢٥٠م إلى ربيع الآخر من السنة نفسها؛ وقُتلت سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م. ولتفاصيل ترجمتها راجع: موسى بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، **ذيل مرآة الزمان**، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ج١،ص٦١؛ محمد بن أحمدالذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م،ج١٤،ص٧٧٧؛ خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: هلموت ريتر وآخرين، فرانز شتاينر،فيسبادن، ١٣٨١-١٤٢٩هـ/١٩٦٢-٢٠٠٨م، ج١٦،ص١٢٠.

[٤] الأتابِك: لفظ تركي مركَّب، أصبح موازيًا لكبير الأمراء. راجع: أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، د. ت، ج٤،ص١٨.

[٥] الأمير فخر الدين يوسف بن محمد بن عمر ابن شيخ الشيوخ، أمير كبير ولي نيابة السلطنة للملك الصالح نجم الدين أيوب، واستشهد في مواجهة الصليبيين في المنصورة سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٠م. انظر ترجمته في: محمد بن سالم ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص١١١؛ يوسف بن قزأوغلي سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، تحقيق: إبراهيم الزيبق، الرسالة العالمية، دمشق، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ج٢٢،ص٤١٠؛ اليونيني، **ذيل**، ج٢،ص٢١٤؛ محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٤، ص٣٦٦؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤،ص٦٨٦.

[٦] ابن واصل، **مفرج**، ص١٠١؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢٢،ص٤٠٨- ٤١٠؛ الذهبي، **تاريخ** ، ج١٤،ص٥٧٧؛ أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، دار الكتب، مصر، ١٣٧٦-١٤٠٣هـ/١٩٥٦-١٩٨٣م، ج١ ق٢،ص٣٣٩، ٣٤٣.

الصليبيين في معركة المنصورة الشهيرة[٧] ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. ولهذا الانتصار وما بعثه في نفوسهم، وعامة أهل مصر تأثير كبير في مجرى الأحداث. فقد تحوّلت نظرتهم لأنفسهم من مجرّد قوة عسكرية إسلامية، إلى أنهم أصبحوا دعامة من دعامات الدولة.

تطوّر الأوضاع في عهد الملك المعظم توران شاه:

كان السلطان الأيوبي الملك المعظم توران شاه، وريث حكم أبيه الملك الصالح نجم الدين، بعيدًا في حصن كيفا[٨] عند وفاة أبيه. فكُتم خبر الوفاة -قدر المستطاع- وأُخذت البيعة له بولاية العهد[٩]، ثم أُرسل من يأتي به من مقرّه إلى مصر[١٠].

وحينما وصل إلى المنصورة في المحرم سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كان الأمير فخر الدين -أحد أعمدة الحكم- قد خرج من المشهد بعد استشهاده في قتال الصليبيين، حينما هاجموا المنصورة[١١]. وبقيت شجر الدر، التي غادرت إلى القاهرة[١٢]، وربما كان ذلك منها لتجنّب صدام توقّعته. وبقي المماليك وهم أمراء الدولة وقادتها، الذين كانوا في أوج نصرهم. فاستعجل توران شاه في تغيير رجال دولة أبيه، وإعلان عزمه على محاسبة من يراه مقصّرًا منهم، مما كان له أبلغ الأثر في مقتله كما يرى ابن واصل[١٣] (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، وهو مصيب في تفسيره هذا. ثم زاد توران شاه في تهديده وتوعّده شجر الدر ومطالبتها بأموال اتهمها بأخذها في آخر حياة أبيه لما ازداد نفوذها في أثناء مرضه[١٤]. فاستعدى بهذا جميع القوى المتنفذة، ووضعها في صراع بقاء ضدّه، فإما زواله أو زوالها. وهو -كما ذُكر- غريب عن دولة أبيه، لا يعرفه حق المعرفة إلا وزير واحد وهو الأمير حسام الدين[١٥] أبو علي[١٦].

---

[٧] انظر على سبيل المثال: سبط ابن الجوزي، **مرآة**، ج٢٢، ص٤١٢؛ ابن واصل، **مفرج**، ص١١١ فما بعدها؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٣٦٦.

[٨] كَيْفَا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، وقد كانت مقر الملك الصالح قبل سعيه إلى السلطنة، وقرّر عليها ابنه توران شاه عند خروجه إلى بلاد الشام، واستمرّ بها إلى أن دعاه المماليك لتسلم سلطنة أبيه في مصر، فخرج منها وبقي فيها ولده، واستمر حكمها في عقبه وقتًا طويلاً. انظر عن الحصن: الحموي، **معجم البلدان**، ج٢،ص٢٦٥؛ ابن واصل،**مفرج**،ج٥،ص٢٩٥-٢٩٦.

[٩] ابن واصل،**مفرج**،ص١٠٠، ١٠١؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤،ص٣٦٣-٣٦٤، ٥٧٧؛ المقريزي، **السلوك**، ج١ ق٢،ص٣٣٩، ٣٤٣.

[١٠] سبط ابن الجوزي،**مرآة**،ج٢٢،ص٤١٠؛ ابن واصل، **مفرج**، ص١٠٤؛الذهبي، **تاريخ**، ج١٤،ص٣٦٣.

[١١] سبط ابن الجوزي،**مرآة الزمان**،ج٢٢،ص٤١٠؛ ابن واصل، **مفرج**، ص١١١؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤،ص٣٦٤، ٥٨٧.

[١٢] سبط ابن الجوزي،**مرآة الزمان**،ج٢٢،ص٤١٧.

[١٣] ابن واصل، **مفرج**، ص١١٨-١١٩، ١٢٧-١٢٨.

[١٤] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢٢،ص٤١٧؛ المقريزي، **السلوك**، ج١ ق٢،ص٣٥٨.

[١٥] الأمير حسام الدين أبو علي الهذباني الكردي (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م)، استدار الملك الصالح نجم الدين أيوب ومحل ثقته، اتصل بخدمته سنة

فمصالح الناس مرتبطة بالمتنفذين القدماء من رجال الدولة، وما زال انتصار المماليك حاضرًا قويًّا في ذهن عامة الناس وخاصتهم. ويُرى هذا جليًا في تفاصيل مقتله، وعدم إقدام أحد على نُصرته والذود عنه، وهو يستنجد بالناسِ والمماليكُ البحريةُ يطاردونه حتى قتلوه في مشهد طويل روته لنا المصادر بتفاصيله[١٧]. وكانت شجر الدر قد حرّضت وشجّعت المماليك البحرية على قتله والتخلّص منه[١٨].

وبعد أن قُتل السلطان توران شاه، وضع المماليك حلًّا مؤقتًا يتمثّل في تولية شجر الدر أمور السلطنة، والبحث عن شخص يصلح لأن يباشر الأمور، تتوافر فيه بعض الشروط الخاصة، أهمها ضعف الشخصية – في رأي من اختاره – وأن يكون مغمورًا ليس ذا شهرة ومنزلة كبيرة إداريًا. فوقع اختيارهم أخيرًا على عز الدين أيبك، أحد المماليك الصالحية، الذي كان جاشنكير[١٩] السلطان الملك الصالح[٢٠].

شكل الدولة الجديدة في عيون مؤسسيها:

يتضح من تتبّع الأحداث أن المماليك لم يخططوا لإنشاء دولة جديدة، ثم قتلوا توران شاه لتنفيذ خطتهم، بل كان مقتل توران شاه حدثًا طارئًا، فقد كان –كما سبق– صراع بقاء بين الطرفين. لكن هذا البحث يرجّح أنهم عندما ولوا شجر الدر وأيبك، كان في ذهن قادة المماليك البحرية على الأقل نموذجًا أرادوا تطبيقه، فتكون لهم السلطة الفعلية دون تهديد فعلي من رأس السلطة الصوري، صاحب الشرعية التي سيعتمدون عليها. وذلك النموذج هو حكم قادة الجيش الأتراك للدولة العباسية وسيطرتهم المطلقة عليها منذ سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م إلى ٣٣٤هـ/٩٤٦م[٢١].

٦٢٦هـ/١٢٢٨م، حضر إلى الشام خلال سعي الصالح إلى السلطنة، وقبض عليه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل مدّة، ثم لحق بالصالح أيوب بعدما أُفرج عنه. انظر: ابن واصل، **مفرج**، ص١٠٦، ١٢٥، ٩٨؛ اليونيني، **ذيل**، ج٢،ص٧٧؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص ٩٠٧.

[١٦] ابن واصل، **مفرج**، ص١٠٦.

[١٧] انظر مثلاً: ابن واصل، **مفرج**، ص١٢٨؛أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين)**، تصحيح: محمد زاهد الكوثري، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٨٥؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤،ص٥٩٧.

[١٨] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢٢،ص٤١٧؛ المقريزي، **السلوك**، ج١ ق٢،ص٣٥٨.

[١٩] الجَاشْنَكِير: المسؤول عن السماط السلطاني، ويتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفًا من أن يدسّ فيه السم. واللفظ مركّب من لفظين فارسيين: (چاشْنا) ومعناه الذَّوق، و (كِير) ومعناه المتعاطي لذلك، فيصبح المعنى الذي يذُوق. راجع: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤،ص٢١، ج٥،ص٤٦٠.

[٢٠] اليونيني، **ذيل**، ج١،ص٥٤؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤،ص٧٧٣؛ بيبرس المنصوري الدوادار (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق: دونالد س. ريتشاردز، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٣.

[٢١] للمزيد عن هذه الفترة من عصر الدولة العباسية انظر: عبدالعزيز بن محمد اللميلم، **نفوذ الأتراك في**

إلا أن أول ما واجههم وفاجأهم هو خروج الشام من أيديهم، فقد استدعى الأمراء القيمرية[٢٢] بدمشق الملك الناصر صلاح الدين يوسف[٢٣] وسلّموه البلد[٢٤]. وبدأت مناطق أخرى تخرج عن سيطرتهم كذلك، داخل مصر وخارجها، وامتد ذلك لفترة ليست بالقصيرة[٢٥].

وقد حاول المماليك الصالحية والجمدارية الذين يقودهم أيبك أن يستغلوا عداء أيوبيي الشام ووجود أيبك في السلطة باعتباره أتابكًا؛ لإقناع أطراف متعدّدة بفشل مشروع المماليك البحرية، وأن الوقت مناسب لبدء دولة خاصة بهم سلطانها منهم. فتمت البيعة على عجل لعز الدين أيبك سلطانًا على مصر، في غياب قيادات المماليك البحرية، في ٢٨ ربيع الآخر ٦٤٨هـ/ ٣٠ يوليو ١٢٥٠م[٢٦]. وقد شعر بهذا التدبير بعض البحرية فحاولوا اغتيال أيبك قبل أن يتم له الأمر في غياب قياداتهم، ولكنهم فشلوا[٢٧]. ويظهر من استقراء المصادر أن اختيار أيبك سلطانًا تم على عجل، وغُيِّب عنه قيادات البحرية، وهم من

الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء من ٢٢١-٢٧٩هـ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)؛ فاروق عمر فوزي، **الخلافة العباسية: السقوط والانهيار** (عمّان: دار الشروق، ٢٠٠٩م).

[٢٢] نسبة إلى قلعة قَيمُرُ، وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط، نسب إليها أمراء دمشق من الأكراد. راجع: عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، **لب اللباب في تحرير الأنساب**، تحقيق: هنريكوإنجلينو ويجرز، لوختمان، مدريد، ١٨٤٠م، ج١، ص٣١٦؛ الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص٤٢٤.

[٢٣] الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب، صاحب دمشق وحلب (٦٣٤-٦٥٨ هـ /١٢٣٧-١٢٦٠م). خرج من دمشق لما قرب منها جيش هولاكو، ثم قُبض عليه في الكَرَك وأُرسل إلى هولاكو وهو في طريقه راجعًا إلى بلاده. فلما بلغه هزيمة جيشه في عين جالوت، أمر بقتل الناصر سنة ٦٥٨ هـ /١٢٦٠م. للمزيد راجع: اليونيني، **ذيل**، ج١، ص٤٦١ فما بعدها؛ الكتبي، **فواتالوفيات**، ج٤، ص٣٦١.

[٢٤] ابن واصل، **مفرج**، ١٣٥-١٣٦؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢٢، ص٤١٣؛ المقريزي، **السلوك**، ج١ ق٢، ص ٣٦٦.

[٢٥] ابن واصل، **مفرج**، ص ١٣٦-١٣٧؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢٢، ص ٤٢٠؛ اليونيني، **ذيل**، ج١، ص ١٦٦؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص ٣٧٤.

[٢٦] ابن واصل، **مفرج**، ص ١٤٠؛ عبدالله بن عبدالظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)، **الروض الزاهرفي سيرة الملك الظاهر**، تحقيق: عبدالعزيز الخويطر، د.ن، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ٥١-٥٢؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص ٣٧٠؛ أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، **مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة**، تحقيق: نبيل محمد عبدالعزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م،ج٢، ص٢٦؛ **النجوم الزاهرةفي ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٨-١٣٩٢هـ/١٩٢٩-١٩٧٢م، ج٦، ص ٣٧٤، ج٧، ص ٥.

[٢٧] الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص ٣٧٠. نقلاً عن تاريخ سعد الدين ابن حموية (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٦م)، وهو مفقود.

انقلبوا على السلطان توران شاه وقتلوه. فقد باشرته شجر الدر وبعض كبار الدولة مثل أبي علي حسام الدين وغيره من الأمراء الكبار. وقد أثّرت عدّة عوامل في هذا الاختيار: أولاً: السرعة، ومن ثَمَّ عدم التدقيق. وقد كان أيبك رابع مرشّح، فلم يكن الاختيار الأمثل عند من رشّحه[٢٨]. ثانيًا: لم يكن أميرًا بارزًا، بل من أواسط الأمراء، ومن ثمّ يسهل التحكّم به. ثالثًا: لم تكن له خبرة في إدارة الدولة، مما يجعله متكلاً على من اختاره. رابعًا: الصلاح والبعد عن الفساد، وتوافر الحد الأدنى من الالتزام[٢٩]. وقد كان أبو علي حسام الدين وأمراء آخرون يقولون بعد اختياره سلطانًا: "هذا متى أردنا صرفه أمكننا"[٣٠].

فالمماليك البحرية يريدون تطبيق النموذج التركي في الدولة العباسية، ولا يرون الإزالة الكاملة للسلطان الأيوبي، كما سيدلل هذا البحث، وعلى الرغم من ذلك فلا يرغبونباختيار سلطانٍ قويٍّ مثل الناصر صلاح الدين في الشام، وإلا عادت الأمور كما كانت، وضاع الهدف الذي وضعوه لأنفسهم وبرروا به قتل توران شاه. بل إن هذا يظهر صراحة عند المؤرخ بيبرس الدوادار (ت ٦٢٥هـ/١٢٢٨م)، وهو الأقرب لتصوير الرأي الرسمي المُذاع للبحرية من غيره من المؤرخين، فهو قول نابع من داخل تلك الطبقة، فقد قال بعد ذكر مقتل توران شاه: "فلما كان منهم إليه ما كان مما اقتضته نوايب الحدثان، رأوا أن يستقر الملك في البيت الأيوبي ولا يخرج عنه، فألقوا إلى زوجة الملك الصالح المسماة شجر الدر المقاليد"[٣١]. ويعضُد هذا أن البحرية طلبوا أحد بني أيوب، وهو الملك المغيث بن العادل[٣٢]، كي يبايعوه سلطانًا بعد قتلهم توران شاه[٣٣]. فهم يرون المغيث مرشّحًا مناسبًا، فقد قتلوا ساجنه ومعتقله، فلربما يرى لهم فضلاً عليه في ذلك، ويحفظ لهم تلك اليد عنده.

لكن سرعان ما نقض قيادات المماليك البحرية تدبير أيبك، فهذا مخالف لمشروعهم، وفوق ذلك فهو سلطنة لمملوك ليس منهم، وهم أصحاب النصر في المنصورة، والقائمون بهذا الانقلاب. فنُقضت سلطنة أيبك بعد خمسة أيام فقط من إعلانها، وعادوا بذلك إلى المشروع

---

[٢٨] ابن واصل، **مفرج**، ص ١٣٢.

[٢٩] الصفدي، **الوافي**، ج٩، ص ٤٦٩-٤٧٠.

[٣٠] نفسه.

[٣١] الدوادار، **زبدة الفكرة**، ص ٣.

[٣٢] فتح الدين الملك المغيث عمر بن الملك العادل بن الملك الكامل الأيوبي. ملك الكَرَك مدّة، ثم اعتُقِل بالشوبك. فلمّا قُتِلَ الملك المعظم توران شاه أخرجه بدر الدين الصَّوابي وملّكه الكرك والشوبك. استسلم للملك الظاهر بيبرس وسلّم له أملاكه، فأرسله إلى قلعة مصر. وقُتِل بها سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م. انظر: اليونيني، **ذيل**، ج٢، ص٢٩٧؛ فضل الله بن فخر الصقاعي (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، **تالي كتاب وفيات الأعيان**، تحقيق: جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٤م، ص٩٨؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٥، ص٥٨.

[٣٣] أبو شامة، **تراجم**، ص ١٨٦؛ عمر بن إسماعيل ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، **البداية والنهاية**، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٥١هـ، ج١٣، ص١٧٩.

الأصل، فاختاروا طفلاً أيوبيًا في العاشرة من عمره، الملك الأشرف يوسف بن الملك الناصر يوسف بن المسعود أقسيس، وسلطنوه عليهم، وعاد أيبك أتابكًاله[٣٤]. فلم يكن من خيار أمام أيبك إلا الإذعان، ولكن إلى حين. فقد بدأ في التدبير بهدوء لإضعاف المماليك البحرية. وكان أول هذه التدابير تخريب قلعة الجزيرة معقل المماليك البحرية، وقطع الجسر الموصل إليها، والقبض على كثير من الأمراء[٣٥]. وبدأ كذلك في استمالة بعض القيادات إليه بالعطايا والإقطاعات، كما فعل مع الأمير أَيْدُغدِي العزيزي[٣٦] لما أقطعه دمياط. لكنه عاد وحبسه، ولم يخرج إلا بعد مقتل أيبك[٣٧]. فهل كان سبب سجنه رفضه لخلع السلطان الأيوبي وإعلان أيبك سلطاناً؟ هذا مرجَّح جدًّا خاصة أنه اتهمه فيما بعد مع طائفة من العزيزية بأنهم تآمروا على قتله[٣٨]. خاصة وأن شجر الدر أخرجت هذا الأمير من السجن بعد أن قتلت أيبك وعرضت عليه تولي الأمر[٣٩]. ولا نرى وجهة نظر المماليك البحرية تجاه تصرفات أيبك بوضوح كما نراها عند المؤرخ ابن عبدالظاهر الذي كتب سيرة أحد قياداتهم. فيقول: "وصار [المعز أيبك] يقدم جماعةً خَلفَ جماعةٍ، ويُداري في الظاهر، ولا يجسر إلا على إظهار التبعية، والتسمي بالأتابكية"[٤٠].

من المؤكّد أن العلاقة بين المعز أيبك والمماليك البحرية وصلت إلى توتّر حادّ، ولكن المواجهة تأجّلت إلى أن يزول الخطر الذي يهددهم جميعًا، والمتمثّل في غزو صلاح الدين يوسف لمصر في سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، فحاربوه سويًا[٤١]. وفور زوال الخطر عاد التوتّر إلى السطح من جديد، فأعلن فارس الدين أقطاي فور عودته وأيبك تجديد الولاء والتبعية للسلطان الأيوبي الملك الأشرف. فيحدثنا ابن واصل عن هذه اللحظات بتفصيل يوضح المقصود: "ولما دخل المعز وفارس الدين أقطاي تلقّاهم الملك الأشرف موسى بن الملك المسعود المنصوب في السلطنة، فهنياه بالنصر والظفر.

---

(٣٤) ابن واصل، **مفرج**، ص١٤١-١٤٢؛ اليونيني، **ذيل**، ج١، ص٥٦-٥٧؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٧٧٣؛ ابن تغري بردي، **مورد اللطافة**، ج٢، ص٢٦؛ **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٧٤، ج٧، ص٥.

(٣٥) الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٣٧٣.

(٣٦) الأمير جمال الدين أيدغديالعزيزي، أمير كبير له فضل وعلم. شاوره الملك الظاهر بيبرس في قتل الملك المظفّر قطز، فنهاه؛ فلما ملك بيبرس قرّبه وجعله مستشاره، وأسند إليه قيادة حملات عسكرية. توفي متأثّرًا بجراحه سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م. انظر: الذهبي، **تاريخ**، ج١٥، ص١٠٠.

(٣٧) يخلط بعض المؤرخين بينه وبين علاء الدين أيدغديالعزيزي. راجع عن حبس جمال الدين: سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢٢، ص٤٢٤؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٥، ص١٠٠.

(٣٨) الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص ٦٥٩.

(٣٩) الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٧٧٣.

(٤٠) ابن عبدالظاهر، **الروض الزاهر**، ص٥٢.

(٤١) ابن واصل، **مفرج**، ص١٥٩، ١٦٣؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢٢، ص٤١٤؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٣٧١.

وقال له فارس الدين أقطاي: يا خوند[٤٢]، كلّما حصل بسعادتك، وما سعينا إلا في تقرير مُلكك"[٤٣]. ومع أن ابن واصل يُرجّح أن هذا التأكيد من أقطاي يعود إلى أنه يريد أن يبقى هذا السلطان ليسهل عليه أخذ السلطنة لنفسه فيما بعد[٤٤]؛ إلا أن هذا تفسيره، ولا يقوم على دليل واضح يُستشف منه ذلك. لكن الواضح أنه يؤكّد ثبات سلطنة الأشرف، ويوجّه رسالة جليّة إلى المعز أيبك. وهذه الخطوة من أقطاي جاءت ردًا على إعلان أيبك بأن "البلاد للخليفة المستعصم بالله، وأن الملك المعزّ عز الدين أيبك، نائبه بها"[٤٥]. وهو ما أمر أيبك بأن يُنادى به بالقاهرة.

وبعد ذلك أصبح واضحًا أن المعز أيبك ومعه المماليك الناصرية والعزيزية يمثلون تكتلاً واحدًا في مواجهة أقطاي ومعه المماليك البحرية[٤٦]. فعزم المعز ومن معه على قتل أقطاي والتخلص من المماليك البحرية، خاصة بعد زوال جدية خطر أيوبيي الشام[٤٧].

حسم الصراع:

يورد بعض المؤرخينأن شجر الدر هي التي أشارت على المعز أيبك بقتل أقطاي، لأنه أصبح يهدد سلطتهما[٤٨]. وهذا مستبعد، فأولئك المؤرخون بنوا ما قالوه على اعتبار أن أيبك كان متزوجًا حينها من شجر الدر، وأنها كانت الحاكمة الفعلية من وراء الستار، لكن الواقع أن أقطاي اغتيل قبل زواج أيبك بشجر الدر[٤٩]. بل يميل هذا البحث إلى أن زواج أيبك من شجر الدر كان في جزء منه لاكتساب الشرعية، باعتبارها أرملة الملك الصالح نجم الدين، وفي جزئه الآخر تحييدها عن الصراع الدائر مع البحرية. وتُرجع المصادر قريبة العهد من الحدث قرار اغتيال أقطاي إلى المعز أيبك، بل ويروي لنا أحدها مشاورته للناصر صلاح الدين في ذلك[٥٠]. ولعل ذلك كان لجس النبض، ليضمن عدم وجود اتفاق بين الناصر والمماليك البحرية.

وما أن اغتيل أقطاي حتى هرب معظم قادة المماليك البحرية، ولوحق من بقي منهم، ونُهبت دورهم وأملاكهم وسلاحهم، وهي مرحلة تصفية سريعة وحاسمة لنجاح المعز أيبك[٥١]. فاتجه من استطاع الهرب من قادة البحرية إلى

---

[٤٢] الخُوند: معناها السيد. وهي من أصل فارسي (خُدَاوَند). راجع: ادي شير، **الألفاظ الفارسية المعربة** (القاهرة: دار العرب، ١٩٨٧م)، ص٥٨.

[٤٣] ابن واصل، **مفرج**، ص١٦٤؛ المقريزي، **السلوك**، ج١ ق٢، ص٣٨٧.

[٤٤] ابن واصل، **مفرج**، ص ١٦٤.

[٤٥] ابن واصل، **مفرج**، ص١٤٢؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٧٧٣.

[٤٦] ابن واصل، **مفرج**، ص١٧٧.

[٤٧] ابن واصل، **مفرج**، ص١٧٨؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٦٥٦.

[٤٨] الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٧٢٢، ٧٧٧؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢٢، ص٤٢٦؛ ابن كثير، **البداية**، ج١٣، ص١٨٥.

[٤٩] ابن واصل، **مفرج**، ص١٨٢؛ اليونيني، **ذيل**، ج١، ص٥٩؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٧٧٤.

[٥٠] اليونيني، **ذيل**، ج١، ص٥٨.

[٥١] ابن واصل، **مفرج**، ص١٧٨-١٧٩؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٦٥٧؛ اليونيني، **ذيل**، ج١، ص٥٩.

الناصر صلاح الدين في الشام يدعونه إلى غزو مصر[٥٢]. وكذلك فعلت قوى متعاطفة مع البحرية كانت بالصعيد لقمع ثورة قامت على المماليك منذ قتلهم توران شاه، فقد أعلن عز الدين الأفرم[٥٣]، الذي أخمد الثورة في كثير من بلاد الصعيد تبعيته للملك الناصر، وخطبت له الجوامع، وكتب إليه يعلمه بذلك ويستقدمه إلى مصر[٥٤].

ثم خلع أيبك فورًا السلطان الأيوبي، بعد مقتل أقطاي[٥٥]، الحائل بينه وبين السلطنة. وأرسل إلى الخليفة العباسي يطلب إليه الاعتراف به سلطانًا على مصر[٥٦]. وفي محاولة لتحييد المتعاطفين مع المماليك البحرية من المماليك الصالحية، تزوج بشجر الدر، كما ذكر سابقًا.

ولم يكن جناح المعز أيبك على قلب رجل واحد، إنما كانت مصالحهم قد اتفقت على التخلص من أقطاي والبحرية، وهذا ما نجحوا فيه. فالعزيزية مثلاً، أرادوا إخراج البحرية من المشهد لأنهم سيشكلون خطرًا على أي سلطان أيوبي يريد أن يحكم فعليًا دون سيطرتهم؛ فبعد أن أُخرجوا بالتحالف مع أيبك، آن أوان خطوتهم التالية، وهي التخلص من أيبك نفسه وإعادة مصر إلى الأيوبيين وسلطانهم صلاح الدين بن العزيز. فحاولوا قتل المعز أيبك، لكنهم فشلوا. وهنا يتنبه ابن واصل إلى أن المعز شعر بخطر أحلافه الجدد، فحاول تقريب المتعاطف من الصالحية مع البحرية، فتزوج شجر الدر[٥٧].

فلماذا إذن توجّه البحرية إلى الناصر وحرّضوه على غزو مصر والاستيلاء عليها؟ فالناصر ليس فيه ما يوحي بأنه سيكون ألعوبة في أيديهم. ألم يقاتلوه مع أيبك في الأمس القريب؟ يزول هذا الإشكال إن وضعنا في الحسبان أن البحرية في هذه المرحلة كانوا جنودًا بلا قائد، وكان اغتيال قائدهم مفاجئًا للجميع، وفوق هذا فهم قلّة قليلة ممن استطاع الهرب، وأغلبهم قُتل أو سُجن في مصر. ولعل هذا ما يُفسّر لنا الرواية الرسمية لأحد أولئك القادة البحرية الذين لجؤوا إلى الناصر، فقد كتب ابن عبدالظاهر، في كتابه الذي سجّل فيه سيرة الملك الظاهر بيبرس البندقداري (كما أحبَّ أن تروى وتُسجّل)، حالة ضعفهم واضطرارهم إلى اللجوء إلى الملك الناصر، في خضم حالة الصدمة

---

[٥٢] ابن عبدالظاهر، **الروض الزاهر**، ص٥٥؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٦٥٧.

[٥٣] الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي، من كبار أمراء المماليك. وأصبح فيما بعد أمير جاندار الملك الظاهر بيبرس، وأمير الجاندار هو الآذن بدخول الأمراء على السلطان. توفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م. انظر: محمد بن إبراهيم الجزري (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، **تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه**، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١، ص٢٩٦؛ الصقاعي، **تالي**، ص١٣؛ الصفدي، **الوافي**، ج٩، ص٤٧٨.

[٥٤] ابن عبدالظاهر، **الروض الزاهر**، ص٥٥.

[٥٥] ابن واصل، **مفرج**، ص١٧٩؛ اليونيني، **ذيل**، ج١، ص٥٩؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٦٥٧.

[٥٦] الدوادار، **زبدة الفكرة**، ص٢٠.

[٥٧] ابن واصل، **مفرج**، ص١٨١.

والفوضى التي عمّت صفوفهم: "والملك الظاهر وجماعة البحرية يعضّون أناملهم من الغيظ، ويأكلون أيديهم من الغبينة؛ ولا يمكنهم بجمعهم القليل مصادمة عسكر مصر، ومعاداة عسكر الشام"[٥٨].

ومع هذا فسرعان ما أتى رسول من الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م) للتوسط بين الملك الناصر والمعز أيبك. وتم الصلح[٥٩]، وشعر البحرية بعدم جدوى بقائهم عند الناصر وقد اعترف بسلطنة المعز أيبك على مصر، فرحلوا إلى الملك المغيث، الذي كان أول مرشّح لهم بعد قتلهم توران شاه كما سبق ذكره، وحثّوه على غزو مصر. ونجحوا في مسعاهم، ولكن باءت تلك الغزوات بالفشل، وهُزم المغيث والبحرية[٦٠]. ثم سقطت بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وزالت الخلافة العباسية فيها، فسقط مشروع البحرية، وقبلوا بمشروع المعز أيبك -مؤقتًا- بعد سقوط الشام في يد المغول سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م[٦١]، وزوال مملكة الناصر. فعادوا إلى مصر لعلهم يجدون مكانًا لهم في هذه الدولة الجديدة، وهذا ما حدث. ثم استولى الظاهر بيبرس ومن معه من البحرية على السلطنة المملوكية، بعد قتله السلطان الملك المظفر قطز، وريث مشروع المعز أيبك. ونجح بيبرس أيضًا في استعادة مشروع البحرية الأول، ولكن هذه المرة أصبحوا أوصياء على الخليفة العباسي، ونقلوا الخلافة إلى مصر، التي استمرت إلى ما بعد زوال دولة المماليك البحرية.

خاتمـــة:

يتضح مما سبق أن دولة المماليك كانت في البداية مشروع وصاية على السلطنة الأيوبية، أراده البحرية الذين دبروا ونفذوا مقتل السلطان الأيوبي توران شاه. ثم واجههم توجّه جديد مثّله الملك المعز أيبك، يتمثّل في سلطنة مملوكية تستمد شرعيتها من الخليفة العباسي مباشرة، الذي يستمد منه الأيوبيون شرعيتهم. ورأينا مراحل الصراع بين التيارين، حتى انتصر تيار أيبك مؤقتًا، إلى أن عاد البحرية بعد تغيّر الخريطة السياسية للمنطقة، وفرضوا مشروعهم، لكن الوصاية أصبحت فيه على الخليفة العباسي نفسه بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة إلى القاهرة

---

[٥٨] ابن عبدالظاهر، **الروض الزاهر**، ص٥٥؛ وانظر ص٥٤ في تصوير حالة الصدمة والفوضى في صفوف البحرية قبل خروجهم من مصر.

[٥٩] ابن عبدالظاهر، **الروض الزاهر**، ص٥٥؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٣٧٤.

[٦٠] ابن واصل، **مفرج**، ص٢٠٢، ٢٠٤-٢٠٥، ٢٥٩؛ ابن عبدالظاهر، **الروض الزاهر**، ص٥٧، ٥٩؛ اليونيني، **ذيل**، ج١، ص٤٩؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٦٦٨، ٦٧٧.

[٦١] انظر على سبيل المثال: ابن واصل، **مفرج**، ص٢٧٥ فما بعدها؛ الذهبي، **تاريخ**، ج١٤، ص٦٧٩ فما بعدها.